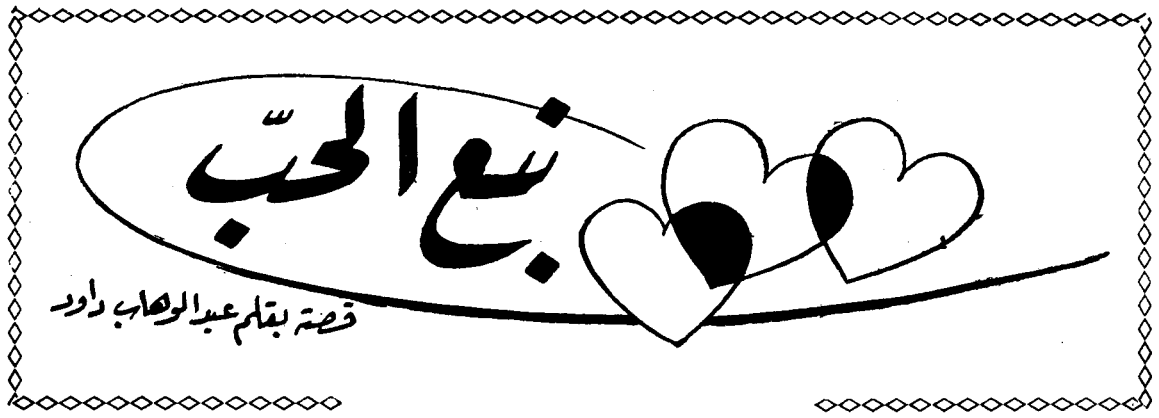

لم يفارقني شعور الوحدة ـ لحظة واحدة ـ منذ ترك بي القطار من القاهرة .. الى العريش .. كنت احس كأنني سأغترب عن بلادي بعيدا .. الى بلدة مجهولة ، لها طبيعتها الخاصة ، ومناخها الخاص ، وعاداتها الغريبة .. فلم يكن لخيالي ان يتصور ان العريش بلدة مصرية عادية تقع على حدودنا الشرقية ، وانما كان يتصورها بلدة موحشة تطل على فلسطين الحزينة ، التي يظللها بؤس اللاجئين المنتشرين في قطاع غزه ، والتي تهب عليها رائحة اليهود الكريهة .. كل مساء .. عند الغروب !

وكلما ابتعد بي القطار عن القاهرة ، ازداد شعوري بالوحدة ، ازداد سخطي على قرار نقلي المفاجيء ، الذي اعتبرته مجحفا... تعسفيا ... لماذا اختاروني انا من بين زملائي جميعا .. بديلا للمدرس الذي مات فجاة بالعريش ، مصابا بالذبحة الصدرية ؟!.. وكنت اتجاهل بذلك ـ عن عمد ـ حقيقة واضحة .. عادلة .. انني اعزب يسهل انتقالي خلال العام الدراسي ، دون متاعب عائلية تذكر !..

ثم وجدت ان التفكير بهذه الطريقة الساخطة لن يفيدني شيئا .. بل سيزيدني هما .. فامتثلت الى الامر الواقع .. وصممت ان اوقف هذا التيار الساخط المتدفق الى نفسي .. وان افكر في شيء اخر .. اكثر بهجة !..

وبخبرتي السابقة مع نفسي اخذت اناقش كل احساساتي ، دون مبالغة .. مثلا ، اني لايجوز ان اشعر بالوحدة ، كاحساس مفاجيء نتيجة ارتحالي بعيدا عن الاهل ، فشعوري بالوحدة احساس قديم جدا .. يلازمني وانا بين اسرتي .. فليست اقامتي الجديدة المجهولة سببا مباشرا لهذا الشعور الكئيب .. ربما زادت حساسيته قليلا .. ولكن .. السبب الحقيقي ان حياتي تخلو من الصديق ، الذي يبدد هذه الوحشة من صدري .. الوحشة الدائمة التي تدفعني غالبا الى التفكير اليائس .. الحزين .. لماذا انا وحيد ؟!.. حقيقة لي اصدقاء كثيرون .. ولكني اعتقد انهم جميعا مزيفون .. مجرد زملاء يجمعنا المجتمع لضرورة الحياة .. دون مشاركة وجدانية .. صادقة .. اصيلة ..

كان القطار يسير في بط غير عادي . منذ تر القنطرة شرقا ، متوغلا في صحراء سيناء الصفراء ، التي تنبض بالحقد والحزن .. وعندما سألت زميلي عن سبب بطء القطار ، مع ان الطريق خال امامه.. صحراء واسعة .. اجاب زميلي على الفور .. ضاحكا :

ـ لانه قطار يسير في اتجاه محدد !

ثم تأملني بعينين مرحتين ، وعندما تأكد انني لن ابتسم لدعابته، وانني كنت جادا في سؤالي ، اعتدل في جلسته .. مستطردا :

ولان القضبان الحديدية لاتتحمل مزيدا من السرعة ، فالارض من تحتها رملية .. رخوة ..

احسست بالندم الشديد لسؤالي هذا .. الذي اعاد الي ثرثرة زميلي ثقيل الظل .. الذي لم يكتف بالاجابة على سؤالي البسيط العابر ، فانزلق سريعا الى الحديث عن مشروعات تعمير سيناء باسهاب وتفصيل ..وان داخل هذه المشروعات تحسين هذا الخط الحديدي ، الذي يبلغ تكاليف انشائه كذا الف جنيه !.. ويبلغ طوله كذا الف كيلو !.. ويستغرق عمل كذا الف سنة !!

كنت استمع الى زميلي ، ثقيل الظل ، في شرود .. محركا رأسي له بين وقت واخر .. في فتور .. في ندم بالغ اننا قد تعارفنا سريعا .. محاولا ان اتغلب على نفوري الشديد منه .. ومن عينيه الزرقاوين المرحتين ، ذات الاهداب الشقراء .. ووجهه المستدير الذي يميل الى الحمرة .. مشمئزا من الرذاذ الذي يتناثر من لعابه وهو يتكلم فيحماس.

حتى انتشلني من حديثه الممل توقف القطار فجاة عن المسير ..وتزاحم الركاب حول النوافذ .. وتساؤلهم في حيرة وغضب .. عن سبب توقف القطار في هذا المكان !

ثم ارتفع صوت احد عمال « الدريسة » من بعيد ، معلنا ان العواصف قد دفنت القضبان الحديدية ، انه من المستحيل ان يتقدم القطار خطوة بعد ذلك .. ولم يلبث ان عاد معظم المسافرين الى مقاعدهم ساخطين .. وبدات الوحشة والكآبة تملآن الوجود .. عندما احسست ـ فجاة ـ بحاجتي الشديدة الى البكاء ، وانا اتأمل من نافذة القطار السماءالسوداء .. حالكة السواد .. تنذر بالمطر .. لم يقض على رغبتي المجنونة هذه ، سوى صوت زميلي ، ثقيل الظل ، وهو يقول لي ساخرا :

ـ يبدو اننا سنقضي هنا ليلتنا !

ثم ضحك وهو يربت على كتفي بشدة .. مستطردا :

ـ لاتخف !.. لن اتركك وحيدا !

واحتضنني في بساطة ، كأننا صديقان منذ عهد بعيد ، قائلا كأنه يريد لو كشف مابنفسي :

ـ فيم تفكر يا اخي ؟

فاومات اليه براسي في عصبية ، وانا اتمنى ان يتركني لحظة وحيدا .. وقلت صابرا :

ـ لاشيء !.. لاشيء على الاطلاق !

فقال وهو يبتعد عني مستأذنا ، ليتحقق بنفسه عن سبب توقف القطار :

ـ لاتحمل هما .. لن يقف القطار هنا الى الابد !

واحسست بالراحة عندما تركني لشأني .. وانا اتساءل في دهشة .. بماذا اساءني حتى اتمنى لو لم نتلاق ابدا .. لماذا لاشكره على توطيد علاقته معي ؟.. واصراره النابع من القلب ان اقيم في ضيافته بالعريش حتى اجد سكنا خاصا يريحني ؟..

لاشيء يدعوني للنفور منه ـ وانا في اشد حاجة الى صديق ـ سوى ثقته الشديدة بنفسه ، ومرحه الزائد عن الحد ، وطبيعته التي تفرض نفسها على الناس في اسرع وقت .. كان هذا في الواقع مايقلقني منه.. فنحن لم نتعارف الا منذ ساعات قلائل ، عندما ترك بنا القطار من القاهرة وسحبني هو في الكلام اول الامر ، وعلم مني اني المدرس الجديد الذي جاء بديلا من المدرس الذي مات .. فاعلن ـ على الفور دون تحفظ ـ

سروره العظيم بمعرفتي ، خاصة ، واننا زميلان في نفس المدرسة .. وهكذا اصبحنا ـ رغم انفي ـ صديقين !!

ومر وقت غير محدود .. ثم عاد زميلي يزف الي البشرى ، ان العمال قد ازاحوا الرمال من فوق القضبان .. وانهم ـ فعلا ـ قد سبقوا القطار في « الترولي » الصغير ، الذي يتناوبون دفعه ، ليكشفوا الطريق امام القطار ..

ثم ترك القطار من جديد .. في بطء .. وواصل زميلي جهوده ثانية في ان يخرجني من وحدتي ، بلا مبالاة لنفوري المتزايد نحوه ..

ولا ادري كيف وصل بزميلي الحديث ـ فجاة ـ الى قضية فلسطين، فاخذ يشرحها كأنني اجنبي لااعرفها .. مبينا لي الادوار التي مرت بها .. مؤكدا لي وعيناه الزرقاوان تلمعان في ثقة .. سوف تعود فلسطين يوما .. يوما قريبا ..

ولم استطع في النهاية ان اكبح جماح نفسي النافرة ، فقلت له ساخرا :

ـ كل عربي يستطيع ان يتكلم .. ولكن .. قليلا من يستطيع ان يعمل في صمت !

فبدت على زميلي امارات الدهشة ، المصحوبة بالقلق الشديد ، ان اكون قد جرحته بهذه الكلمات الخشنة .. فقال متلعثما :

ـ والله معك حق !.. معك حق !!

واسرعت انا اسدد اليه الضربة الثانية .. فقلت له :

ـ لو اجاد كل عربي استعمال السلاح ، كما يجيد ـ مثلك ـ الكلام ، لاختلف الوضع تماما !.

فابتسم زميلي مكرها .. في شحوب .. ثم قال شاردا :

ـ والله معك حق !.. معك حق !

وانتظر لحظة .. ثم قال :

ـ نهاية القضية الحاسمة عندما تتحد الحكومات العربية .. ولكن .. والى ان تتحد الحكومات العربية ، كما اتحد الشعب العربي ، لابد ان نبحث عن حل اخر !

فقاطعته انا .. مؤنبا :

ـ ستعود الى الكلام في السياسة من جديد ؟

فاجاب مسرعا ، وقد احتقن وجهه من الغضب ، مختصرا كثيرا مما كان يود ان يقوله :

ـ ستعود فلسطين بعزائم رجالها المشردين !

وغمرني ـ للاسف ـ شعور خفي بالارتياح ، وقد تغيرت ملامح زميلي فاصبحت خالية من كل مرح .. ثم سالته في برود :

ـ تقصد اللاجئين ؟!

فاجاب محتدا .. وقد بدت عليه الشراسة لاول مرة :

ـ نعم !.. بواسطة اللاجئين !.. او ليسوا رجالا كرجال الجزائر ؟!

وساد بيننا الصمت فجاة .. وطويلا .. واشاح زميلي عني بوجهه ، واطبق شفتيه في قسوة .. واحسست انني قد فقدت صداقته نهائيا .. والى الابد ..

... اخيرا .. توقف القطار في محطة العريش .. وصاح زميلي بصوت جهوري ، مثير للاعصاب ، مناديا احد الشيالين .. فالتف حولنا عشرات من الكتل الادمية ، كل يدفع الاخر بقسوة وضراوة ، ليحمل حقائبنا ، وعلى شفاههم جميعا ابتسامة ذل واهنة .. جائعة .. وكان واضحا انهم جميعا من اللاجئين المشردين .. فتركت لزميلي حرية اختيار الشيال الذي يحمل حقائبنا، خشية الا اكون عادلا في اختياري.. على اعتبار ان زميلي اكثر خبرة مني بهذه المنطقة التي اراها لاول مرة !

واختار زميلي حمال رجل يشع البؤس من عينيه الضيقتين الغائرتين، وشعره الاشعث، ووجهه القذر الذي لم يعرف الاغتسال منذ مدة طويلة.. انحنى بجسمه الضئيل ، فرفع حقيبتي الصاج الكبيرة الى كتفه البارز العظام .. في حين التفت زميلي الي بعد قليل ، وقال كأن لم يحدث بيننا جفوة ما ... في صوت صاف خال من الكدر :

ـ حمدالله على السلامة !

ثم سرنا ـ زميلي وانا ـ متجاورين.. صامتين.. بينما الشيال يتبعنا.. اكاد اسمع حفيف حقيبتي الثقيلة مع كتفه العاري .. النحيل ..

وفي منتصف الطريق .. سألت زميلي .. مبددا الصمت الرهيب حولنا :

ـ كم يبلغ هنا عدد اللاجئين ؟

فضحك زميلي فجاة ، كأنني القيت عليه نكتة بارعة ، ثم اجاب قائلا :

ـ كثيرون .. مثل النمل !

وازعجني عودة المرح الى زميلي سريعا .. فاطبقت شفتي على مرارة، بعد ان تاكدت بما لا يقبل الشك ان زميلي حقيقة ثقيل الظل .. لا فائدة !!

كنا وقتئذ في اعقاب الليل .. الجو بارد .. قارس البرد .. بينما نحن نسير في احدى الحوارى الضيقة .. وانا في دهشة من خيالي.. فالعريش لا تختلف كثيرا عن قرانا بالوجه البحري .. كانت عبارة عن بيوت متقاربة من طوب اللبن .. ومقاه صغيرة وكثيرة ، ربما اكثر من البيوت ، مضاءة بنفس مصابيح الجاز « الكلوبات » .. بينما الحواري ضيقة متعرجة ، قد انقلبت بعد سقوط الامطار الى « بحور شتاء » كما نسميها عندنا بالفلاحين ..

لهذا ادركت بعد وقت قصير ، انه لم يعد هناك ما يبرر حرصي على نظافة البنطلون ، بعد ان تناثر عليه الوحل .. كما لم يعد هناك امل في نظافة الحذاء ، الذي تسربت بداخله مياه الامطار ، حاملة قدر ما تستطيع من الرمل والطين .. فاصبح لصوت حذاءينا المبتلين ـ زميلي وانا ـ ونحن نسير ، نغما رتيبا ، استرحت اليه حتى وصلنا اخيرا الى البيت .. حيث دق زميلي الباب طرقا متواصلا .. مزعجا .. ثم جذب سقاطة الباب في خشونة ، كأن صبره قد نفد ، ودفع الباب الخشبي في عنف وهمجية .. صائحا في مرح :

ـ تفضل يا سيدي !.. تفضل هذا بيتك !

ولكني لم اتقدم .. انتظرت قليلا ..

وما كاد زميلي يخطو الى الداخل حتى اصطدم بشاب طويل .. يرتدي جلبابا .. فعانقه زميلي مهللا ..

وتشاغلت انا بمعاونة الشيال في انزال حقائبنا الى الارض .. والذي استدار لينصرف منبرما ، رغم قطعة النقود الكبيرة التي وضعتها شاكرا في راحة يده .. في حين ترك زميلي صاحبه ـ فجاة ـ والتفت الينا.. مشيرا الى الشيال قائلا لي :

ـ لا مؤاخذة !.. اصل هذا الشيال ابن هرمة !

واذهلتني ضحكة الشيال .. وهو يجيب على زميلي .. في حب .. قائلا :

ـ ماذا جرى يا حمد ؟.. دعنا نعيش يا اخي !

ثم انصرف ضاحكا .. كأن زميلي قد اجزل لم العطاء .. ثم لكزني زميلي في يدي قائلا .. في مرح :

ـ هذا الشيال أغنى مني ومنك !

ثم استطرد ضاحكا :

ـ انه من اعيان فلسطين سابقا !.. وعندما ..

وقطع كلماته فجاة ، ثم قدمني الى صاحبه الذي وقف يبتسم لي في تحفظ .. والذي تقدمني مرحبا بنفس الابتسامة الى حجرة واسعة ، لا يكاد يبدو ما بها من اثاث .. فاسدة الهواء .. شديدة الرطوبة .. مسقوفة بالخشب دون طلاء ..

وكان بالحجرة ثلاثة رجال .. قاموا من جلستهم ترحيبا بقدومي ، وافسح احدهم لي مكانا بجانبه .. ثم بدانا نتعارف بسرعة ، فكلنا مدرسون .. اصحاب مهنة واحدة !

ثم لم يمض الوقت كثيرا ، حتى ثبت في ذاكرتي اسم زميلي الذي

رافقني في القطار ، من كثرة ما تردد اسمه بيننا في الجلسة .. فقد كانوا جميعا ينظرون اليه في حب حقيقي .. ولا يبدأ احدهم حديثا حتى يلتفت اليه قائلا ..متوددا :

ـ معي يا حمد ؟

فيرد عليه زميلي في لهجة فلسطينية اصيلة ، جعلتني اسأل من بجواري هامسا .. وانا مذهول لاهمية زميلي بينهم :

ـ هو الاستاذ حمد فلسطيني ؟

فأجابني الرجل في ابتسامة هادئة :

ـ حمد ؟!... نعم .. فلسطيني !

فلت له وانا اتأمل حمد من جديد .. متعجبا كيف يبدو لهم خفيف الظل .. جذابا :

ـ كان يجب ان اكتشف هذه الحقيقة .. اول الامر !

فأجاب الرجل ضاحكا :

ـ ان لهجته مصرية لطول عشرته معنا .. لدراسته الطويلة في مصر !

فقلت له وانا ما زلت اتفحص حمد في دهشة :

ـ غريبة !.. وحضرتك ايضا فلسطيني ؟

فأجاب في ود .. وهو يزداد اقترابا مني :

ـ لا !.. انا مصري !

وكأنه ادرك اهتمامي الزائد بحمد .. وربما اراد ان يزيد من علاقته بي .. فأخذ يقص علي تاريخ حمد .. في همس .. كأنه يفشي سرا..

.. كان حمد صغيرا .. في الوقت الذي بدأت العصابات اليهودية ترهب الاهالي ليتركوا الارض .. وكان والد حمد من المواطنين الذين اصروا على البقاء .. حتى كان يوما استقبل حمد صباحه الكئيب ، فاذا به وسط دماء اسرته .. وحيدا .. يقلب جثثهم .. في ذهول !

فجأة .. قطع حديثنا احد الجالسين ، موجها ترحيبه الي .. ثم انتقل حمد مسرعا من مكانه .. واقترب مني مرحبا ، وجذب مقعدا وجلس عن يميني .. قائلا ... في مرح :

ـ ما رأيك في هؤلاء الاخوان ؟!

واستطرد سريعا .. مشيرا بيده الى الجالسين .. وقال مداعبا :

ـ اخوان الصفا ... والمرح ؟!

وعجزت ان ابتسم لدعابته ، حتى مجاملة ، وفي خيالي صورة مقبضة عن الموت .. ولكنني ـ فجأة ـ شعرت انني امام انسان غير عادي .. شخصية جذابة حقا .. مختلفة تماما عن الرجل الذي صحبني من القاهرة .. وكان ثقيل الظل على قلبي !

تبدل شعوري نحوه فجأة .. تغيرت صورته .. ولم تعد عيوننا تلتقي الا وابتسمنا في حنان .. وتقدير .. انقلب الموقف في الحال راسا على عقب ، واصبحت انا الثقيل الظل ، الذي اقترب منه متوددا .. انشد صداقته .. واعتز لو يتكلم كثيرا .. كثيرا .. فلا يسكت عن الحديث ابدا ..

ولم يأت ربيع ذلك العام في البلد الذي لم يعد غريبا علي ، حتى اكتملت صداقتي بحمد .. كنت اصحبه كل اصيل الى البحر .. حيث نجلس وحدنا على الشاطىء .. فوق قارب صيد قديم .. يظللنا النخيل .. وتعبث باقدامنا مياه البحر .. ويصافحنا النسيم فينعش وجداننا .. ونحلم .. كأننا في الجنة .. كان الجمال الذي حولنا سرابا وليس حقيقة ..

وكان يزيد من سعادتي امنية واحدة .. لو ان الطريق الى البحر .. لا يمر على اللاجئين المنتشرين في بؤس اسفل الوادي .. كانت كآبتهم تمسح نشوتي بالحياة .. وكنت في كل مرة اسأل نفسي .. في حزن.. وانا اتأمل وجه صديقي خلسة .. بينما تزدحم خواطري بمئات الصور لبؤس اللاجئين .. وكنت اهمس الى نفسي في مرارة ..

ـ متى يرجعون ؟!

القاهرة — عبد الوهاب داود

الربيع القتيل !

... هذا الخريف ،
لم تسقط الاوراق من اغمادها .
لم يعرها اصفرار ،
لم تنتزعها ثورة الرياح ،
لانها لم تعرف اخضرار
لانها ما نبتت على اعوادها
لانها ما زارها الربيع ! !
اشجارنا ظلت بلا وشاح ،
اغصانها منشبة فروعها
في جبهة الرياح ...
فروعها ، كأنها هياكل عارية عجفاء
كأنها مخالب مشهرة تكفر بالسماء !
.. كأنها اصابع البشر !
كأنها ايديهم الفقيرة الدماء ..
.. وكانت السماء ،
كأنها وجوههم
وليتها .. كأنها عيونهم ..
يا ليتها ، يا ليتها تمطرهم دماء !!
... لم تمطر السماء ،
والارض جف دمعها ،
ونبتت ذابلة ازاهر الحقول ،
كأنها تقول :
ما اظلم السماء !.. وامي الارض .. ترى هل جف ضرعيا ...
لانها لم تمطر السماء ؟!!
.. وزرعنا ، اما حفرنا ، ارضه البوار بالشفاه ؟!
وبالاظافر ..
اما رششنا تربه الاحمر بالمشاعر .
وبالصلاة ؟! ..
أما صلبنا فوقه اله
يحميه من جوارح الكواسر ،
اما سقينا بذره النابت بالدماء؟!
فما الذي غيض في عينيك يا سماء
مناهل الدموع
فمات في حقولنا الربيع
عطشان .. يا سماء ؟؟
... ردي ، أيا سماء !!

دمشق — علي الجندي